خَــــوْخَــــة

• عــــلاء اللامــي*

كانت عارية وبضّة، يَغْمرها ضوءُ النهار الباهر، وتسيل عليها قطراتُ الماء الدقيقةُ المتناثرة، المعلّقةُ على الزَّغب الأشقر الذي يغطّي بشرتَها الخمريّة، التي أضفى عليها الظلُّ الباهتُ الساقطُ من جهة الباب الخارجيّ الموارِبِ والأرضيّةِ المرمريّة الناصعة تحتها شيئًا من الصلابة.

لم يكن أحدٌ من الحاضرين يَنْظر إليها سواي. كانوا ثلاثتهم - خليلو وناصر وصيهود - غارقين في نقاش صاخب حول موضوعهم الأثير، ألا وهو البعدُ الأخلاقيُّ للحصار وسيلةً حربيةً في تاريخ الإنسان.

زعموا في البداية أنهم لا يريدون الخوض في التفاصيل بل يحاولون استجلاء الموضوع في عموميّاته وسياقاته التاريخية. ولكنْ، وبمجرد مرور خمس دقائق من التمهيد والتذكر والتذكير، راحوا يتسللون بمكر وسرعة كثعالب صحراويّة إلى التفاصيل ومن ثم إلى تفاصيل التفاصيل. من ذلك مثلاً: هل تؤثّر كميةُ النشويّات المتناقصة وانعدامُ اللحوم والفاكهة في الطعام البشريّ، على المدى البعيد، في أحلام الناس المحاصَرين وأمزجتهم ورنينِ أصواتهم؟ وكيف؟ وما هي العلاقة بين هجرة الطيور المقيمة والشعراء والسَّحَرة والسفراء وجباة الضرائب، وبين الانتشار المهول للجرب والأغاني السيّئة والصداع النصفيّ؟ وهل ثمة علاقة بين منتوج الباذنجان الذي تضاعف أربعَ مرات خلال عامين وحازت ثمارُه لقبًا معبِّرًا وطريفًا هو «وحش الطاوة،» وبين تضاعُفِ نسبةِ الطلاق؟ وأخيرًا، لماذا يستدير المحتَضِرون من الرجال والنساء خلال الحصار إلى جهة الجنوب، ويضع الواحدُ منهم إبهامَه في فمه قبل أن يَلْفظ أنفاسَه الأخيرة؟

كانوا قد شرَعوا قبل قليل في مناقشة تأثيرات الحصار في لون عيون الأطفال والعصافير والكلاب السائبة، فيما كنتُ أنا أختلس النظر إليها بين الفينة والأخرى: بضّةً وشهيّةً، منحتْها قطراتُ الماء حيويةً وجاذبيّةً خاصَّتَيْن. رحتُ أنظر إليها خلسةً، مع يقيني التام من انشغالهم بالمناقشة ومن كوني غيرَ مراقَبٍ تمامًا. وكانت تنمو في داخلي رغبةٌ فتيّةٌ لا لون لها، وجوعٌ غريبٌ أشبهُ بتيارِ ماءٍ ساخنٍ يسيل تحت كتلة من الثلج المتكلّس.

وفكّرتُ لأول مرة في ارتكاب الحماقة المعيبة الكبرى، حماقةِ أن أحملها أمام نظراتهم وأذهبَ بها إلى مكان بعيدٍ وظليلٍ لأَسْتفرد بها فتكونَ لي وحدي. ولكنّني سرعان ما استأصلتُ تلك الفكرةَ الأنانيّةَ من ذهني ورميتُ بها إلى الطريق العام، فمرّت سيارةٌ سوداءُ فارهةٌ ومهيبة. هل قلتُ مهيبة؟ أظنّ أنني ارتكبتُ خطأً غيرَ مقصود هنا لأنَّ «الهيبة» التي لا تخلو من وميضِ إعجابٍ ممزوجٍ بالرهبة؛ وهذا خلاف الحقيقة. فالناس عمومًا، وأكثرُهم جوعًا على جهة التخصيص، لا تَشْعر نحوَ هذا الضرب من السيّارات ونحوَ مَنْ فيها من البشر بأيّ نوعٍ وقَدْرٍ من الهيبة أو الإعجاب، لا لأنّ هؤلاء من علْية القوم والمسؤولين الكبار في أجهزة الدولة فحسب، وإنما لأنّهم في معظمهم خارجَ جحيم الحصار الذي يذوي فيه ملايينُ الناس. إذن: لا هيبة ولا رهبة ولا إعجاب، بل خوفٌ وذعرٌ واستلابٌ، ونظرةُ شكّ تسلّطها ملايينُ الجياع على أوداجِ وكروشِ قلّةٍ مرفّهةٍ تتحمّل مسؤوليةَ هذا الجوع الشامل الغامر والخرابِ المهندَس بكثيرٍ من الحذلقة والدم البارد.

وهنا وجدتُني أمدّ يدي إليها، أو لأقلْ وجدتُ يدي تمتدّ إليها دون قرار سابق وأكيد. لقد انتبهتُ إلى يدي وهي في منتصف المسافة إليها، تشقّ الهواءَ الملطَّخَ بالضوء والنوايا ودخانِ السجائر ذات التبغ الرديء، و هاهي تبلغُها، فتمسَّد بأنملتي الوسطى والسبّابةِ بشرتَها الناعمةَ في حركةٍ خرقاء وعجولة. كانت بشرتُها باردةً أكثرَ مما ظننتُ، وقد فاجأني ذلك بعضَ الشيء. ربما كانت تلك البرودة الناعمة بتأثير البلل الذي أصاب بشرتَها الغضّة الشهيّة. وفي اللحظات القليلة التي استغرقها امتدادُ يدي واستعادتُها لم أجرؤ على النظر إليهم؛ وحين فعلتُ ذلك بعد دقائق بَدَتْ لي سنواتٍ طويلةً أَلِفْتُهُم في عالمٍ آخر منشغلين بنقاشهم المتوتِّر، المعقَّد، الكثيرِ الارتباك والعديمِ الموضوع لفرطِ ما فيه من مواضيع.

---

* - كاتب عراقيّ، يعيش في جنيف.

شعرتُ بوجود شخص يقترب ويقف إزائي. كفَّ الأصدقاءُ عن نقاشهم الأشبه بالضجيج وشاركوني النظرَ إلى القادم. كان فتًى أشعثَ الشعر، شاحبًا شحوبَ الموتى، بعينيْن عراقيّتيْن وسيمتيْن، وأنفٍ أقنى يوحي بالكبرياء. بدا وكأنه لم يأكل شيئًا «محترمًا» منذ ثلاثة قرون. يَحْمل على صدره صندوقًا على هيئة مستطيلٍ قليلِ العمق، ثبّتَ فيه عددًا من علب السكائر المحليّة والمستوردة وعلبٍ صغيرة للعلكة وأخرى أصغر منها للشخاط تزيّنها صورةٌ ملونةٌ للوالي بنظرته الكئيبة وعقاله المرخيِّ على جبينه كثيرًا. هذه الطريقة في وضع العقال وتركِهِ ينسرح وينحدر باتجاه الجبين ليست محترمةً جداً في جنوب البلاد، ولهذا السبب بالضبط كان صغارُ رجال الأمن يميِّزون زوّار العاصمة من الجنوبيِّين بسرعة حين يمرّون مرتبكين يصارعون ابتساماتهم الكظيمة والثعلبيّة أمام صورةٍ أو نصبٍ للوالي بعقاله المنسرح إلى الأسفل. أما في وسط البلاد، فقد علمتُ من رجل لا يوحي مظهرُه بثقةٍ كبرى أنّ وضع العقال مائلاً ناحيةَ الجبين يُراد به عندهم إبرازُ الروح الشبابيّة والفتوّة والمرح وغيرِ ذلك من توابل الجنون وسوء الحظ. أغربُ ما في الأمر هو أنّ صورة الوالي هذه لا وجود لها في الجنوب، وهذا يعني ـ إنْ كان يعني شيئًا ـ أنّ رجال الحكومة يَعْرفون المعاني «غيرَ المحترمة» التي ينصرف إليها ذهنُ الجنوبيّ حين يرى الوالي بتلك الهيئة، فتدبّروا أمرَ منع ظهور تلك الصورة في ما بينهم ودون الحاجة إلى إبلاغ المَرْكز بالموضوع. ثم مَنْ يجرؤ على أن يقترح : «أيّها الرفاق، ينبغي أن نرفع صورةَ سيِّدنا ومولانا الوالي لأنّ هذه التسريحة العقالية تعني لدى أهل الجنوب أنّ صاحبها(..)؟!»

عَرَضَ الفتى بضاعتَه بكثيرٍ من الهدوء وصَمْتِ الشهداء والأولياء. وحين تيقّن أننا لسنا زبائنه المفضّلين ألقى عليها ـ نعم عليها هي ـ نظرةً طويلةً، متمهّلةً، عميقةً إلى درجةٍ تلامس الحلمَ والصلاةَ. شعرتُ أنّ نظرة الفتى تلك، بكلِّ ما فيها من ضيْمٍ وعذابٍ ورغبةٍ ولوعةٍ وشوقٍ وكرامةٍ، كانت أقسى على روحي من سوطٍ من الجمر والسمّ يَلْفح ظهري. وحين بدا وكأنه قد استدار ومضى في سبيله وجدتُني أعود إلى التحديق إليها، ولأول مرة أشعر أنها متبرِّجة كثيرًا وخاليةٌ من المعنى... بل ولئيمةٌ أيضًا. غير أنني فوجئتُ بأنّ الفتى بائعَ السجائر قد عاد مرةً أخرى وتوجّه هذه المرة إليها، إليها فقط، بنظرة شاملةٍ ومركّزة، جائعةٍ وقلقة، ثم استدار بلمح البصر واختفى. خامرني إحساسٌ أكيد بأنه كان يبكي، أو في سبيله إلى البكاء. عاودتني فكرةُ اختطافها بعنف أشدّ، ولكنْ هذه المرة لا لأستفرد بها بل لأَحْشرها في..

اختفى الفتى بسرعة خارقة. لعلّ الهواء المضاء قد تشرّبه وامتصّه فجأةً، هو وصندوقَه البائسَ الصغيرَ ومكعّباتِ جوعه الضاري الذي لم يكن نهرُ دجلة سببًا فيه. أَوَتُعَاني دجلةُ ذاتُها الجوعَ؟ لا! العطَش. لكأنّ النوائب تنحدر على هذا السهل بالجملة والمفرد. انتهى زمنُ الفيضانات الطوفانيّة، فحلّ زمانُ الجفاف وحبسِ مياه الأنهار. انقضى عصرُ الطاعون والهيضة «الكوليرا» والحمّى الصفراء والجدريّ وحبةُ بغداد، وحلّ عصرُ اليورانيوم المنضّب وغازِ الخَرْدل والسيانيد والقنابلِ الفراغيّة. رحل الحجّاج وجنكيزخان، وحلّ زمنُ الوالي ذي العقال المائل وزمنُ الإمبراطور الأطلسيّ النَّجِس. ليست الأنهارُ وحدَها التي تعاني في زماننا اللعين هذا، وإنما أيضًا الأهوارُ والأسماكُ والطيورُ النادرة والقططُ والكلابُ وأصنافُ الحشرات والنباتات والطحالب ونوافذُ المدارس وأعمدةُ الهاتف وعجلاتُ السيارات ومقرنصاتُ الأضرحة وأسطواناتُ التوقيع البابليّة والرواياتُ المفعمة بروائح السمك والخذلان. وهذا الزفت صيهود يواصل تشدُّقَه بالشعارات الفارغة وتكرارَ أسطوانته المقنعة والمعقولة، ولكنْ في زمن الجنون والجوع. إنه يكرر، بقليل من النشوة وكثير من الإخلاص، أنّه لا يمكننا الخروجُ من هذا المأزق، من هذه الكارثة، قبل أن نَكْشف بشجاعةٍ عن أسبابها وقبل تحليلها ضمن سياقها التاريخيّ. ثم يتساءل، بهيئةِ بائعِ بطاقات اليانصيب الماهر: أيمكننا أن نَفْشر بطّيخًا قبل أن نبذر البذورَ أولاً؟ فأنتبه للحوار، وكأنّ عبارة «نفشر بطيخًا» سحبتْ ذهني من أنفه مرغمًا (وهل لذهني أنف؟). لم أُجب عن السؤل بل قلتُ في سري:

ـ ياعزيزي صيهود، اذهبْ من فضلك إلى جهنّم، أنتَ ونظريّاتك وشعاراتك، فأنا جائع!

أما خليلو فيحاول من جانبه أن يُثْبت أنّ الخلاص يبدأ من التركيز على الحاضر، لا من نبش الدفاتر العتيقة وتصفية الحسابات: «علينا أن نُحْدِثَ ما يُمْكننا من ثقوب وثغرات في جدار الحصار، ونحاولَ توسيعَها حتى ينهار كما تنهارُ كتلةٌ من الجبن الكرديّ اللذيذ...»

ـ يا عزيزي خليلو، اذهبْ أنتَ وثقوبك أيضًا إلى الجحيم.. فأنا جائع!

تبخّر الشعور بالجوع بسرعة عجيبة، وحلَّ محلَّه إحساسٌ غامض مبرِّح بالعار حين تذكّرتُ الفتى بائعَ السجائر. كان المسكين شاحبًا كأمير منفيّ ومهمَلٍ في جزيرة قصيّة. لن أنسى، ما حييتُ، نظرتَه الزائغةَ والغاضبةَ تلك. أيمكن لوطنٍ، مهما كان اسمُه ومهما كانت قصتُه وتاريخُه، أن يتجسّد في نظرة صبيّ جائع؟ في صرخة بريء يقاد إلى المشنقة؟ في حشرجة امرأة تُذْبح في الشارع العام لأنها أطعمتْ أطفالها من لحمها؟ إلى أيّ درجة كان متجسِّدًا كلُّ ذلك العذاب والخراب والموت والتشبُّث بالحياة ؟ لماذا لا تجيب أنتَ يا دجلةَ الخير؟ لماذا تواصلين صمتَك أنتِ أيتها العاريةُ المتبرِّجةُ المبلَّلةُ الزغبِ بماء أشقر حزين؟ لماذا تواصلين حربَ إغرائك ضدي؟ أتظنين أنني أكثر جوعًا، ومن ثمَّ أكثر ضعفًا من سواي؟ ما الذي ستنالينه في نهاية المطاف؟

بَسَطَ ناصر كفَّيْه على الطاولة، وسحب نَفَسًا عميقًا، ثم قال عدة كلمات لم أفهم منها شيئًا. اعتقدتُ أول الأمر أنه يتكلم بلغة أجنبيَّة غريبة وغامضة. لم أعد أتذكّر ما قال، وحين التبس الأمرُ عليَّ تمامًا رجوتُه أن يعيد، فنظر إليّ نظرةً مُشْفِقة، نظرةَ رجلٍ يعود من سفر بعيد وموغِلٍ في التاريخ. وكانت توشّي وجهَه ـ أو للدقة النصفَ الأصلَ من وجهه ـ ابتسامةٌ مائعةٌ تنوس فيها معانٍ كثيرةٌ ومأساوية. ثم مدَّ يدَه إليها بهدوء وبطء مقصود. هاهي يده تمتدّ في الهواء الساكن الأصفر. إنها تَبْلغ نصفَ المسافة نحو بشرتها العارية. وفجأةً تندفع يدي نحوها في حركة أقرب إلى وثبة حيوان جريح وتلتقطها. ثم، وبحركة سريعة، دفعتُ بها كلّها دفعةً واحدةً إلى فمي ورحتُ أضغط عليها بأسناني. وبلذة ومتعة جَعَلَ طعمُها الحلوُ، الباردُ، الحامضُ، الأشقرُ يتسرَّب إليَّ ويمتزج مع اللعاب، فأشعر أنني لم أذق في حياتي كلِّها ثمرةَ خوخٍ كهذه أبدًا. وها هي نظراتُ الأصدقاء الثلاثة تَسْقط معًا على السطح المرمريّ لصحن الفاكهة الفارغ كفراشات من الصمت والجوع.

جنيف